

## الإصلاح السياسي والوطني في جهود الكواكبي (محور إصلاح الدولة العثمانية)

د. محمد علي الأحمد\*

تأتي أهمية رؤية عبدالرحمن الكواكبي وجهوده في الإصلاح بعد مرور مئة عام على وفاته، من علاقتها المباشرة ومساسها الملحّ بالواقع الذي تحياه الأمة الإسلامية في عالمها المعاصر، بعد أن رمتها الأمم الأخرى عن قوس واحدة، ووصلت إلى درجة من الانحطاط والانحدار والمهانة، باتت معها تزدري نفسها، وتتمسك سبل النجاة والخلاص في كل ما يتراءى لها أنه مسلك للخروج من حيرتها وضياها، وإذا كان الكواكبي قد صور حال الأمة المسلمة مع مطلع القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي بالشكل الذي فصله في كتابيه "أم القرى" و"طبائع الاستبداد"، وكان عصره آنذاك أفضل بكثير مما هو عليه حال الأمة اليوم، فماذا يقول هو وأمثاله من المتحفزين رواد الإصلاح إذا رأوا ما تعانيه أمة الإسلام من ويلات ومحن في وقتها الحاضر، مطلع القرن الحادي والعشرين؟<sup>١</sup> يقول الكواكبي متحدثاً عن عصره: إنه لما كان عهدنا هذا، وهو أوائل القرن الرابع عشر، عهداً عمّ فيه الخلل والضعف كافة المسلمين، فلا بد لهذا الخلل الطارئ، والضعف النازل، من أسباب ظاهرة غير سرّ القدر الخفي عن البشر، فدعت الحمية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلك، والتتقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

لقد عاش الكواكبي في عصر اشتدت فيه الهجمة على الخلافة الإسلامية العثمانية، على الرغم مما كانت تمر فيه مؤسسة الخلافة من ضعف وتراجع، وعلى ما كانت تقع فيه من أخطاء، وما يؤخذ عليها من مآخذ جراء المواقف والممارسات الإدارية التي يمارسها الولاة

\* دكتوراة في التاريخ العربي الحديث، باحث متفرغ، الأردن.

(١) الكواكبي، عبدالرحمن، أم القرى، نشر دار الرائد العربي، ط ٢، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٣، المقدمة.

والإداريون، ويحمل السلطان عبدالحميد تبعاتها وأوزارها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية شنت على شخص السلطان عبدالحميد في هذه الفترة حملات مركزة تقوم في أغلبها على الكذب والافتراء والتشويه من أعداء الإسلام بالدرجة الأولى، ومن أعداء العثمانيين بالدرجة الثانية، وتظاهر الطرفان في محاربة العثمانيين، ولا سيما السلطان عبدالحميد؛ لأنه كان يمسك براية الخلافة من منطلق إسلامي خالص، ويلوح بها لهؤلاء الأعداء في داخل البلاد العثمانية وخارجها.

وقد عملت الدولة الاستعمارية آنذاك التي تتربص بديار الإسلام وتسعى لتقويض دولة الخلافة العثمانية في اتجاهين في آن معاً:

الاتجاه الأول: تكثيف الحملات العسكرية من الدول الأوروبية المعادية للعثمانيين، وفي مقدمة هؤلاء فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا.

والاتجاه الثاني: السعي لتفتيت الدولة العثمانية من الداخل من خلال إثارة النعرات الطائفية وتحريك القوميات للعمل ضد الدولة، وإحياء الروح العصبية لدى أبناء القوميات المنضوية تحت لواء العثمانيين كي تطالب بالانفصال عن جسد دولة الخلافة؛ لأن النزعة والعصبية القومية لدى أبناء الرابطة العثمانية كانت كامنة وساكنة حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ومع بداية هذه الفترة بدأت الدول الاستعمارية تنفخ في نار القوميات لتأجيجها من أجل تفتيت دولة آل عثمان، يقول محمد محمد حسين: "ظهرت الروح القومية في العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت ظروفها شبيهة بالظروف التي ظهرت في القومية الفارسية في صدر الإسلام، فكما أن الشعوبية الفارسية قد ظهرت نتيجة عنجهية العرب الجاهلية من الحكام في أواخر الدولة الأموية، فكذلك الشعوبية العربية أثراً من آثار عنجهية الترك الحاكمين، كان العرب والترك يلتقون عند الإسلام الذي يوحد بينهم ويسوي بين أفرادهم، فلما صاح الترك مفاخرين بطورانياتهم، استيقظ في العرب فخرهم بمجدهم القديم، فبدأ العرب يستكفون من حكم الترك... وكانت بلاد الشام هي أسرع أجزاء الوطن العربي تأثراً بالروح القومية الجديدة التي سادت التفكير الأوروبي آنذاك"<sup>(١)</sup>.

(١) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (جزءان)، نشر مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٩٨٢، ج٢،

ويأتي دور الكواكبي في هذه المرحلة الحساسة من حياة الأمة الإسلامية كداعية للإصلاح، حيث ظهرت من بداية القرن التاسع عشر بوادر الإحياء الثقافي العربي، وازدادت بشكل واضح ونشط مع النصف الثاني منه<sup>(١)</sup>، ووجد جيل من المفكرين تجاذبته تيارات عدة، تأثر أغلبها بالحضارة الغربية وانطبع بالفكر الغربي، وأطلق على هؤلاء المنبهرين بالنموذج الأوروبي رواد الإصلاح أو رواد النهضة، وهم في الحقيقة دعاة للتغريب، أخذوا مواقفهم المتقدمة في الدعوة لتقليد الغرب في الفكر وأنماط الحياة المختلفة<sup>(٢)</sup>. وكان ذلك جراء الاعتقاد بتفوق الغرب على العرب والمسلمين في كل شيء، ومن هؤلاء: رفاعه الطهطاوي وخير الدين التونسي وحمدان خوجة، وبعض الشخصيات من بلاد الشام، مثل: إبراهيم اليازجي وأديب إسحاق وبطرس البستاني وناصيف اليازجي وآخرون. وبدا بشكل واضح تأثر هؤلاء بأراء الثورة الفرنسية بما فيها مفاهيم الحرية والمساواة والعدالة، التي أخذت بالانتشار في البلاد العثمانية في ذلك الوقت<sup>(٣)</sup>، وتزامن هذا مع بروز اتجاهات فكرية جديدة تحمل مفهوم الإصلاح في الدولة العثمانية<sup>(٤)</sup>، ومن هذه الاتجاهات:

- (١) عبدالعزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٤م، ص ١٤٠، ١٤١.
- (٢) مفيدة محمد إبراهيم، عصر النهضة العربية بين الحقيقة والوهم، دار مجدلاوي، ط١، عمان، ١٩٩٩م، ص ٢٤٦، وانظر محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج١، ص ٢٥٤-٢٥٦.
- (٣) عبدالعزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ١٤١-١٤٩، وانظر منير مشابك موسى، الفكر العربي في العصر الحديث (سورية من القرن الثامن عشر حتى العام ١٩١٨م)، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٣م، ص ٤٧، ١٥١-١٥٤.
- (٤) الإصلاح مأخوذ من الإصلاح، والصالح في اللغة ضد الفساد، صَلَحَ يَصْلَحُ ويَصْلُحُ صلاحاً، والجمع صلحاء، والإصلاح نقيض الإفساد، وأصلح الشيء بعد فساده، أقامه، ويشار في هذا السياق إلى أن مفهوم الإصلاح الذي درج المؤرخون على إطلاقه على الخطوات التي اتخذها السلاطين العثمانيون في القرن التاسع عشر، إنما رُوِّج له دعاة التغريب من ذوي الفكر العلماني، وأضافوا عليه هذه الصفة الحسنة 'الإصلاح'، وهو في الحقيقة يأخذ شكلاً آخر أرادته الوزراء الماسونيون في الحكومات العثمانية المتعاقبة في القرن التاسع عشر، يتمثل في إقصاء الشريعة الإسلامية عن الحكم، واستبدالها بأنظمة وتشريعات مستمدة من القوانين المدنية الغربية، كالخطوات التي اتخذت في عهد السلطانين عبد المجيد الأول وعبدالعزیز، كما وجد تيار آخر للإصلاح من خلال تطبيق الشريعة الإسلامية وأحكامها، التي تعدّ المنهج الرباني المتكامل للإصلاح، وهو المخرج للدولة العثمانية من مشكلاتها المزمنة التي تعاني منها.
- انظر ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م)، لسان العرب (١٨ جزءاً)، دار صادر، ط١، بيروت، ٢٠٠م، ج٨، ص ٢٦٧، وعن مفهوم الإصلاح في العصر الحديث، انظر شرف، عبدالرحمن، تاريخ الدولة العثمانية (جزءان)، باللغة العثمانية، طبع نظارة المعارف، ط٢، استانبول، (١٣١٥هـ =

١. اتجاه من المفكرين الأتراك من أبناء الدولة العثمانية، الذين أنشأوا حركة العثمانيين الجدد (بني عثمانيلر)، بعد بداية حركة التنظيمات العثمانية، التي كانت مرحلتها الأولى في عهد السلطان محمود الثاني جد السلطان عبدالحميد الثاني، المتوفى عام ١٨٣٩م، ومن هؤلاء ضياء باشا ونامق كمال. وكان تأسيس هذه الحركة عام ١٨٦٥م، وأصدروا جريدة الحرية عام ١٨٦٨م، وعملوا في الأستانة وباريس حتى عام ١٨٧٧م، حين حل السلطان عبدالحميد مجلس المبعوثان، وعملوا بعد ذلك بشكل سري في باريس باسم تركيا الفتاة، ثم تحولوا إلى الاتحاد والترقي، وكانت الجمعية على صلة بالحركة الماسونية المسماة (البناء الحار) التي ظهرت في أراضي الدولة العثمانية عام ١٧٣٨م وحاربها السلاطين العثمانيون. وكانت الأهداف المعلنة لهذه الجمعية عند نشوئها الإصلاح الداخلي في أجهزة الدولة العثمانية وفي إدارتها في النواحي المختلفة. أما أهدافهم المخفية فهي إسقاط الدولة العثمانية وتغيير النظام الإسلامي فيها إلى نظام جمهوري<sup>(١)</sup>، يقول السلطان عبدالحميد عن ماسونيتهم وأهدافهم: "لا بد للتاريخ يوماً أن يفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الأتراك الشبان، أو تركيا الفتاة، وعن ماسونيتهم، استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم -تقريباً- من الماسون، وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الأنجليزي، وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل"<sup>(٢)</sup>. وكان أكثر هؤلاء من المتأثرين بالفكر الإلحادي الذي كان يجتاح أوروبا باسم التحرر (liberalism) وبكتاب الثورة الفرنسية ومفكرها، وكانوا واقعين تحت سيطرة الصهيونية العالمية<sup>(٣)</sup>.

٢. اتجاه من المفكرين العرب منقسم إلى تيارات عدة هي:

أ) تيار إسلامي إصلاحي يدعو إلى العودة للإسلام الأول بصفائه وعقيدته، ورفض الانحرافات والرواسب التي ألحقت به عبر العهود الإسلامية المتتالية، وقد شهدت الفترة

(١٨٩٧م) ج ٢، ص ٣٤١، الحكيم، يوسف، سورية والعهد العثماني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٨.  
- شفيق جحا، التنظيمات، أو حركة الإصلاح في الإمبراطورية العثمانية (١٨٥٦-١٨٧٦م) مجلة الأبحاث فصلية، بيروت، السنة (١٨)، ع (٢)، حزيران ١٩٦٥، ص ١٢٠-١٢١.

(١) لويس شيخو، السر المصون في شيلة الفرسون، مجلة الشرق سنة (١٤) ع (٨) آب ١٩١٠ ص ٦٠٦-٦٠٧، حسون، علي الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية المكتب الإسلامي، ط ٣، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٩٠-١٩١.

(٢) عبدالحميد الثاني، المذكرات، تحقيق محمد حرب عبدالحميد، دار القلم، ط ٣، دمشق، ١٩٩١م، ص ١١٥-١١٦.

(٣) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج ١، ص ٢٨.

الإسلامية الأولى تطابقاً بين الإسلام والعروبة، وفي العصر الحديث نشأت حركات إسلامية تمثل هذا التيار الإسلامي الإصلاحي على أطراف الدولة العثمانية كالحركة السنوسية في شمال إفريقيا (ليبيا) والحركة الوهابية في الجزيرة العربية (نجد) إضافة للحركة السلفية في مصر والعراق<sup>(١)</sup>. وتلتقي الحركة الوهابية في توجهاتها مع رؤية الكواكبي بعدم الاعتراف بالسلطة العثمانية، وبوجوب نقل الخلافة إلى العرب، إضافة إلى الالتقاء حول المناداة بالعودة إلى منابع الإسلام الحنيف الصافي ونبذ الخرافات والأوهام والبدع التي ألحقت به عبر عهود الانحطاط<sup>(٢)</sup>.

ب) تيار إسلامي إصلاحي يسعى إلى بث الوعي السياسي في الأمة الإسلامية وتحقيق التعاون بين الحكام المسلمين لمقاومة الغزو الأجنبي الغربي، ويؤكد هذا الاتجاه على الإصلاح بالتوفيق بين الثوابت الفكرية للأمة والمحافظة على الأصول وبين مواكبة الإسلام لحركة التطور، وإعطاء بعض المفاهيم الإسلامية معاني حديثة بحيث تتسجم مع التقدم والتطور العلمي، وذلك من خلال فتح باب الاجتهاد، والتأكيد على العناية بالتراث واللغة العربية، ويمثل هذا الاتجاه محمد عبده ومن معه.

ج) تيار إسلامي إصلاحي يعطي للعرب دوراً متميزاً ويدعو إلى نهضتهم باعتبارهم حملة الإسلام ويدعو إلى خلافة عربية يعز بها الإسلام ويفصل بين الخلافة العربية وبين الإسلام ويمثل هؤلاء الكواكبي ورشيد رضا<sup>(٣)</sup>.

### ثقافة الكواكبي

قبل البدء باستقراء الملامح الرئيسة لفكر الكواكبي في الإصلاح السياسي والوطني، يحسن الوقف عند جوانب معينة من شخصيته ولا سيما أصول ثقافته؛ لما لذلك من أثر واضح من تكوينه الفكري وتوجهاته. ولد عبدالرحمن بن أحمد بن بهائي بن مسعود بن محمد بن أبي يحيى (المعروف بالكواكبي) بن صدر الدين بن موسى بن صفى الدين إسحاق الأردبيلي في مدينة حلب عام ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م، وترجع شهرته بالأردبيلي نسبة إلى أردبيل من

(١) عبدالعزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ١٤١

(٢) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في لعصر الحديث دار الكتاب العربية بيروت، د.ت، ص ١٠-٢٥. وانظر منير مشابك موسى، الفكر العربي، ص ١٨٤.

(٣) الدوري، التكوين التاريخي الأمة العربية، ص ١٤٢

أعمال أذربيجان المتاخمة لإيران، وإلى جده صفى الدين ينتسب إسماعيل الصفوي الذي جلس على عرش فارس وأسس الأسرة الصفوية، التي حكمت إيران وبلاد فارس حتى نهاية السبعينيات من القرن العشرين، ولهذا أرجع البعض الكواكبي إلى المذهب الشيعي الجعفري السائدة في تلك البلاد، لما يعرف آل الأردبيلي وآل الصفوي من اتباع لهذا المذهب، ويتجاهل البعض الآخر هذا الاتباع وينسب الكواكبي إلى آل بيت النبي ﷺ على أنه من نسل موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن علي زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

والواقع أنه لا يوجد ما يدل على تشيع الكواكبي وعلى اتباعه للمذهب الجعفري، وكل مواقفه ومؤلفاته "طبائع الاستبداد" و"أم القرى" تشير إلى عدم ابتعاده عن أهل السنة والجماعة، وهناك إشارات في "أم القرى" إلى أنه متأثر بمنهج السلف، وأنه يأخذ من جميع المذاهب ما يرى أنه الأقرب إلى السنة والالتزام بالقرآن، وترك التقليد لأي مذهب من المذاهب دون إعمال الرأي والنقل، ولهذا أشار بعض الكتاب إلى تأثر الكواكبي ببعض آراء المعتزلة، من جراء إعطائه دوراً أكبر للعقل عند مناقشة النصوص الشرعية<sup>(١)</sup>. أما ثقافة الكواكبي فكانت ثقافة مشايخية عربية؛ فقد درس على يدي أبيه الشيخ عبد القادر الحبال، والشيخ محمد علي الكحيل<sup>(٢)</sup>.

ثم مزجت بثقافة تركية تعلم أولاً علوم الشريعة واللغة، واتصل بأديب تركي اسمه خورشيد، فعلمه التركية والفارسية وإتقانه التركية جعله ينشئ فيها إنشاءً بالعربية<sup>(٣)</sup>. وإضافة للثقافتين العربية والتركية، تأثر الكواكبي بالآراء والمفاهيم العربية، ولا سيما فيما يتعلق بالديمقراطية والإصلاح الوطني، ويرى البعض احتمال تأثر الكواكبي بأفكار المفكر الإيطالي ألفييري فيتوريا (Alfieri vittaria) الذي عاش بين ١٧٤٩-١٨٠٣م، وأنه تأثر بآراء مفكرين غربيين آخرين أمثال: جان جاك روسو وموتسكيو وفوريه<sup>(٤)</sup> ويؤكد هذا ما جاء عند موسى وكردعلي، يقول موسى: "... عندما يستمد آراءه من الكاتب التركي

(١) انظر الكواكبي، أم القرى، ص ١٣-٧٧، ٧٨-٧٨، تابيرو، الكواكبي المفكر الثائر، ص ٩٦.

(٢) منير مشابك موسى، الفكر العربي، ص ١٥١.

(٣) كردعلي، المعاصرون، من ٢٨٠-٢٨١.

(٤) الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ١٦٨، وانظر نورير تابيرو، (مستشرق فرنسي)، الكواكبي المفكر الثائر، ترجمة علي سلامة دار الآداب ط ١، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٦٤، ٦٥ أحمد أمين، علماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ٢٥٤.

عبدالله أمين الذي ترجم كتاب (ألفييري) الإيطالي، وقد استقى كثيراً من معلوماته من اللغة التركية ومن علماء الترك، فما فاتته من جهل لغة غربية (أجنبية) جبره بعض الشيء بما قرأه في التركية من المترجمات عن الغربيين<sup>(١)</sup>. وقد أوضح الكواكبي ذلك في مقدمة كتابه "طبائع الاستبداد"، وأن ما يصدر عنه في هذا الموضوع ليس كله من فكره، بل يقتبس بعضه، يقول: "فنشرت في بعض الصحف أبحاثاً علمية سياسية في "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" منها ما درسته ومنها ما اقتبسته"<sup>(٢)</sup>. ثم ينوه إلى من سبقوه بالكتابة في علم السياسة وفي الاستبداد من أبناء الأمم المتحدة عبر عهود التاريخ قديماً وحديثاً وبذكر من تقدموا عليه من العرب في العصر الحديث في تناول هذه الموضوع كرفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وأحمد فارس الشدياق وسليم البستاني وآخرون<sup>(٣)</sup>.

#### الكواكبي والدولة العثمانية:

وقفت الدولة العثمانية مع مطلع القرن التاسع عشر على حافة الهاوية بعدما رأى سلاطينها وثوب أوروبا نحو الرقي والتقدم والتطور العلمي والتقني ودولتهم سادرة في تخلفها وانحطاطها، فسعوا إلى اللحاق بركب الأوروبيين. وذلك من خلال الإصلاحات التي قام بها السلطانان محمود الثاني، (١١٩٩-١٢٥٥هـ/١٧٨٥-١٨٣٩م) وابنه السلطان عبدالمجيد الأول، حكمه (١٢٣٧-١٢٧٧هـ/١٨٢٢-١٨٦١م) ومن بعدهما السلطان عبدالعزيز بن محمود الثاني الذي سعى للسير على خطى سلفيه، لكن التيار التغريبي من جماعة العثمانية الجدد، ومعظم زعمائه من المنتظمين في الماسونية، لم يمهلوا عبدالعزيز وقتلوه؛ لأنه حاول الإفلات من قبضتهم والالتفاف على شروطهم وعدم تنفيذ مخططهم لتحويل الدولة إلى النظام الجمهوري العلماني، والتخلي عن النظام الإسلامي المعمول به<sup>(٤)</sup>.

ويقتل عبدالعزيز واستلام عبدالحميد الثاني عام ١٨٧٦م، دخلت الدولة العثمانية مرحلة جديدة يمكن تسميتها مرحلة تأخير إعلان السقوط، إذ كان مخطط قادة التيار الطوراني التغريبي إعلان سقوط النظام العثماني الإسلامي مع اعتلاء مراد الخامس سدة

(١) كرد علي، المعاصرون، ص ٢٨٢.

(٢) عبدالرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، نشر المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣١، ص ٢، المقدمة.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤.

(٤) السلطان عبدالحميد الثاني، المذكرات، ص ١٧ مقدمة المحقق حجاز، التنظيمات، ص ١٣٠.

الحكم عام ١٨٨٧م؛ لأنهم استطاعوا السيطرة عليه وتنظيمه في الحركة الماسونية، وأخذ موافقته على خطواتهم التحويلية نحو النظام العلماني الجمهوري<sup>(١)</sup>، وقد ألبسوا حركتهم الانقلابية هذه ثوباً حريراً يسمى الإصلاح، لكن مرض مراد الخامس واختلال عقله أسقط حقه في الحكم، وجاء بعده عبدالحميد الثاني إلى الخلافة بعد ثلاثة أشهر فقط من حكمه، ولم يوافق هؤلاء على تولي عبدالحميد الخلافة إلا بعد تعهده لهم بإتمام تنفيذ المخطط التحويلي المشار إليه آنفاً، وتمكن عبدالحميد من الإفلات من قبضتهم بانحنائه للعاصفة؛ لأنها أقوى منه، ريثما يمكن لنفسه من الإمساك بزمام الأمور مستقيماً مما رآه بأم عينه من القضاء على عمه عبدالعزيز حين عاكسهم ولم ينفذ خطتهم، وهذا الموقف من الخليفة عبدالحميد أحدث ردة فعل قوية لدى التيار الماسوني المحيط به من رجالات الدولة، جعلهم ينقمون عليه ويخططون في السر للإطاحة به، وفي المقابل اتبع سياسة متشددة تجاه أعدائه داخل الدولة وخارجها، ووضع خطط بديلة لخطط رجال التفريب من خلال التمسك بالنظام الإسلامي وتقوية مؤسسة الخلافة وإشهارها سلاحاً في وجوههم، وتقريب العرب وإشراكهم في حكم الدولة لا سيما أنصار العلاقات العربية العثمانية من المتمسكين بالرابطة العثمانية، كذلك بث الروح الإسلامية في أوصال مؤسسة الخلافة وفي ولايات الدولة وكسب تعاطف المسلمين في العالم الإسلامي بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وإحداث نهضة شاملة في أرجاء الدولة وتحديث أجهزتها ومؤسساتها في خطوات إصلاحية عملية تحت مظلة الخلافة الإسلامية والنظام الإسلامي من أجل منعها من السقوط<sup>(٢)</sup>، وإزاء هذا كله أدرك أعداء العثمانية وأعداء الخلافة من الدول الإستعمارية كفرنسا وبريطانيا وروسيا أهمية إمساك عبدالحميد الثاني بالخلافة، فاحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م، وجعلت منها ملاذاً آمناً للمنشقين والخارجين عليه من العرب في بلاد الشام من رموز التيار القومي العربي، بعد ما أثارت فيهم الحمية العربية والروح القومية وحرضتهم بكل الطرق للخروج على العثمانيين، وإحداث شرخ في العلاقات معهم<sup>(٣)</sup>.

- (١) محمد جميل بين، فلسفة التاريخ العثماني، نشر شركة مزج الله للمطبوعات، بيروت، ١٩٥٤م، ص ١٧٥.  
- سرهنك، إسماعيل حقائق الاخبار عن دول البحار (ج ٣) المطبعة الأميرية بولان، مصر، ١٨٩٤م، ج ١، ص ٧٢٧-٧٢٨. السلطان عبدالحميد الثاني، المذكرات، ص ١٠٦-١٠٧.  
(٢) الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ١٦٤، ١٦٥.  
(٣) محمد محمد حسين، الانتجاهاات الوطنية، ج ١، ص ٢٢١، ٢٢٢، ٢٥٦. كامل، الإسلام والعروبة، ص ١٣٧.  
سلطان علي، تاريخ سورية (١٩٠٨-١٩١٨م) دار طلاس، ط ٢، دمشق، ١٩٩٦م، ص ٦.



وعملت فرنسا في على استيعاب التيار العلماني الماسوني التغريبي من الأتراك الطورانيين، وجعلت من باريس -أيضاً- ملاذاً آمناً لهؤلاء المعادين للخلافة ولعبد الحميد، وفي المحور الثالث ركزت روسيا جهودها في محاربة الدولة العثمانية، وكان لانتهزام العثمانيين أمام جيوشها بعد سنة من استلام عبد الحميد للخلافة في عام ١٩٧٧م، دور كبير في خروج عدد من دويلات البلقان من سلطة الدولة العثمانية، وانحسر نفوذها عن تلك المناطق<sup>(١)</sup>. وفي مثل هذه الظروف الدقيقة والحرجة جداً للدولة العثمانية، ومع تكالب الأعداء عليها من الداخل والخارج، لم يكن أمام السلطان عبد الحميد من خيار سوى إحكام القبضة على ما تبقى تحت سلطة دولته من ولاياتها، ومنها بلاد الشام، ومحاربة ذوي النزعات الانفصالية والعصبية القومية، وكانت بلاد الشام بالنسبة لدولة الخلافة العثمانية خط الدفاع الأول وصمام الأمان؛ لذلك شدد السلطان عبد الحميد على كل من سولت له نفسه إثارة الاضطراب أو المجاهرة في العداء لها<sup>(٢)</sup>؛ لأنه لو لم يفعل ذلك لما صمدت الدولة أمام الأحداث المزلزلة لمدة ثلث قرن، وهي فترة خلافة عبد الحميد الثاني، وقد أدت سياسته الحازمة تلك إلى نقمة التيارين القوميين عليه، الطوارني التركي، والقومي العربي، وبدأ كل منهما يكد له ولدولته في السر والعلن، ويتعاون مع الدول الاستعمارية المتربصة بدولة الخلافة، ولا سيما فرنسا وبريطانيا، وبدأ سيل الاتهامات والافتراءات والكذب والدسائس ينهال عليه، وكانت الحركة الماسونية ومن ورائها الصهيونية العالمية تعمل في الخفاء والعلن على إسقاطه بسبب سياسته الإسلامية الحازمة والرافضة إعطاءهم الموافقة على الهجرة إلى فلسطين، تمهيداً لجعلها وطناً قومياً لهم<sup>(٣)</sup>.

من هنا يأتي موقف عبدالرحمن الكواكبي في سياق توجهات التيار القومي العربي الذي تحركت فيه النصر القومية، وشهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر نشاطها وانبعاثها، وكانت حياة الكواكبي في حلب خلال هذه المدة، وهو في ريعان شبابه، ومن الناقمين على العثمانيين بسبب مراقبة السلطات العثمانية له في حلب؛ لأنه كان يوجه

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، المذكرات، ص ١٠٢-١٠٥.

(٢) بيره جكلي، زينب محمد صبري، شعر الثورات الداخلية في العهد العثماني (٢ج)، دار الضياء، ط ١ عمان، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٣٨.

(٣) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج ١، ص ٢٦٥.

الانتقادات الشديدة للدولة العثمانية ويهاجمها، ويندد بحكم السلطان عبدالحميد، ويتكلم من خلال عمله في جريدة الفرات في حلب، ثم جريدتي الشهباء والاعتدال على الولاة ويتهممهم بسوء الإدارة، ويحرض الناس علناً على الخروج على الدولة العثمانية<sup>(١)</sup>، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية نقم على العثمانيين ولا سيما على السلطان عبدالحميد جراء تقريبه منه شيخ الطريقة الرفاعية محمد أبو الهدى الصيادي، وتحويل السلطان لقب نقابة الأشراف في حلب إلى آل الصيادي عن آل الكواكبي، بعدما آل هذا اللقب إلى عبدالرحمن الكواكبي؛ لأنه من وجهاء آل الكواكبي في حلب، وشق عليه بعدما تقلب في عدد من المناصب الهامة في إدارة ولاية حلب<sup>(٢)</sup>، وبعد الشهرة والجاه اللذين نالهما من هذا المنصب الذي تتنافس عليه معظم الأسر الحلبية العريقة والمشهورة، ذات الشرف والجاه والمال في حلب، كآل الجابري وآل المقدسي وآل المدرسي<sup>(٣)</sup>، هذا إضافة إلى ما أشيع عن نقد أبي الهدى الصيادي لديوان الخلافة الإسلامية العثمانية وللسلطان عبدالحميد نفسه وما أثير من أقاويل عن نسب الكواكبي وأصوله الشيعية الفارسية.

وواضح مدى الحساسية وشدة التناظر بين العثمانيين والصفويين حكام إيران ذات المذهب الشيعي الجعفري، وما دار بينهما من حروب طاحنة طوال عمر الدولة العثمانية<sup>(٤)</sup>، كل هذا جعل النقم من آل الكواكبي ومن حلفائهم والمؤيدين لهم شديدة وقوية على الخليفة عبدالحميد وعلى أبي الهدى الصيادي، اللذين كيل لهما من التهم والتلفيقات الكثير الكثير، رداً على ما ناله أبو الهدى من حظوة ومنزلة عند الخليفة، جعلهم يصبون كل ما لديهم من الوسائل والأساليب في تشويه الصيادي وعبدالحميد، وفي الوقت ذاته يظهرون الكواكبي بمقام المدافع عن العروبة والإسلام ضد الأتراك<sup>(٥)</sup>، ويرى الشوابكة أن الحملة

(١) كردعلي، المعاصرون، ص ٢٨٠. منير موسى، الفكر العربي، ص ١٥١.

(٢) كردعلي، المعاصرون، ص ٢٨١. أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٣) أحمد الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية، مكتبة المنار، ط ١، الزرقاء، الأردن، ١٩٨٤م، ص ٧٠.

(٤) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، نشر المكتب الإسلامي، ط ٢، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٠١-١٠٣، ٣٨٥-٤٠٢.

(٥) محمود كامل، الإسلام والعروبة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٧٩، منسي، محمود صالح، حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، دن، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٦٦.

التي تعرض لها أبو الهدى لا تخرج عن نطاق النزاعات الأسرة التي تميزت بها العلاقات بين تلك الأسر في حلب قديماً وحديثاً<sup>(١)</sup>، وقد أشار أحمد أمين إلى هذا النزاع، متهماً أبا الهدى بالدس على الكواكبي والتحريض عليه بقوله: كان من أعداء الكواكبي أبو الهدى الصيادي؛ لأن الكواكبي أبى الاعتراف بصحة نسبه، ولاعتداء أبي الهدى على بيتهم بأخذ نقابة الأشراف منهم لنفسه، فكان أبو الهدى أيضاً يدس له ويفري ولاية الأمر به<sup>(٢)</sup>، لهذا فإن السلطان عبد الحميد هو المقصود بكل ما كتب عن الدعوة إلى الحرية والمناذاة بفصل الدين عن الدولة، فالذين يتكلمون عن الاستبداد وتقييده بالنظام النيابي، كانوا يقصدون استبداد عبد الحميد، والذين نادوا بخلافة عربية بعيدة عن السلطة الزمنية كانوا ينظرون إلى استخدام عبد الحميد سلطته الدينية بوصفه خليفة للمسلمين في جمع السلطة في يده ومحاربة أعدائه<sup>(٣)</sup>.

ولم يكن عدا الكواكبي للعثمانيين لأنهم متخلفون حضارياً واجتماعياً وتكنولوجياً وحسب، بل كانت نزعته القومية ذات أثر واضح في مجافاة العثمانيين والتهجم عليهم، ولا سيما السلطان عبد الحميد الذي عمل على إذابة النعرة العصبية، وعلى امتصاص هذه النزعة من نفوس العرب من أجل إبقاء علاقة العثمانيين بهم في إطار الجامعة الإسلامية والأخوة في الدين، ويبعد عنها الروح العصبية، لإدراكه خطورة هذه الروح على العلاقات العربية العثمانية وعلى تفتيت دولة الخلافة وإسقاطها، وكانت نظرة الكواكبي للدولة العثمانية أنها غير قابلة للإصلاح، بل يؤمن بضرورة إسقاطها من الناحيتين الدينية والسياسية؛ لأن العثمانيين فقدوا مشروعيتهم في حكم المسلمين، وقد تركزت رؤيته للإصلاح السياسي والوطني في الجوانب التالية:

#### ١) الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة:

كان الكواكبي طوال حياته في حلب ينتقد السياسة العثمانية، ويهاجم الولاة والمسؤولين العثمانيين بشكل عنيف وحاد يثير نقمة المسؤولين عليه، وكان في حالة صدام

(١) الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص ٧٠-٧١. منير موسى، الفكر العربي) ص ١٥١.

(٢) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ٢٥١.

(٣) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج ١، ص ٢٨٠.

دائم مع أولي الأمر؛ لأنه، كما يقول عنه موسى، ينشر آراء غير معتدلة فيما يكتبه في الصحف<sup>(١)</sup>، ونتيجة لهذه المواقف الحادة والعدائية للسلطات العثمانية لم يجد بداً من الاختفاء عن الأنظار والهروب إلى مصر، بعد أن استنفد أولو الأمر وسائلهم في التقاهم معه، ويروي موسى أن المتهم الأول بالوشاية به أبو الهدى الصيادي، الذي حاول فيما بعد تقريبه من السلطان وطوي صفحة الماضي، لكن الكواكبي لم يتجاوز مواقفه السابقة، فهرب إلى مصر، ويظهر أن أحد تلاميذ الكواكبي، وهو عبد المسيح الأنطاكي قد مهد له سبيل الوصول إلى مصر، حيث سبقه إلى هناك وعمل كصحفي وكداعية للعرب ضد الأتراك، ثم تبعه الكواكبي يرافقه ابنه الأكبر كاظم ووصل إلى القاهرة في منتصف تشرين الثاني ١٢٩٨/١٣١٦هـ<sup>(٢)</sup>، وعدت (بيره جلبي) توجه الكواكبي إلى القاهرة جزءاً من الحملة الموجهة للعمل ضد الدولة العثمانية بقولها، ولما شدد السلطان عبدالحميد على دعاة القومية، هاجر كثير منهم إلى مصر كالکواکبي وعبدالحميد الزهراوي، فاحتضنهم الإنجليز فيها، وساعدوا على نشر أفكارهم، لما فيها من تحقق مآربهم في الإطاحة بالدولة العثمانية<sup>(٣)</sup>، وكان الكواكبي قد كتب كتابيه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، و"أم القرى"، وبوصله إلى القاهرة نقح طبائع الاستبداد وزاد عليه، وشرحه مفرقاً في صحيفة المريد التي كان يصدرها الشيخ علي الليثي<sup>(٤)</sup>، وقد نوه الكواكبي في مقدمة طبائع الاستبداد إلى غرضه من وضعه: أنا المضطر للاكتتام حسب الزمان الراجي اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال، إنني في سنة ثمانى عشر وثلاثمائة وألف وجدت زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سمي عم النبي ﷺ، العباسي الثاني، الناشر لواء الحرية على أكناف ملكه، فنشرت في بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية في "طبائع الاستبداد"، غير قاصد ظالماً بعينه، ولا حكومة مخصصة إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين، عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون فيه، فلا يعتبرون على الأغيار، ولا على الأقدار، وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات<sup>(٥)</sup>. ويفسر موسى قول الكواكبي الأنف ذكره: "أنا المضطر للاكتتام حسب

(١) منير موسى، الفكر العربي، ص ١٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٣) بيره جلبي، شعر الثورات الداخلية في العهد العثماني، ج ١، ص ٣٨.

(٤) منير موسى، الفكر العربي، ص ١٥٢. محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج ١، ص ٢٦٦.

(٥) الكواكبي، طبائع الاستبداد، ص ٢.

الزمان... غير قاصد ظالماً بعينه" بأن الكواكبي قال ذلك خوفاً وتقية، وأن ما هو هام في كتابه هو جراته في نقد الاستبداد، دون تسمية الحكم التركي بالذات<sup>(١)</sup>.

وفي كتابه الثاني "أم القرى" يضع يده على الخلل الذي تعاني منه الأمة الإسلامية، وما يعترها من الضعف والتخلف، ويدعو إلى فصل الخلافة عن السلطنة، ويقترح جعل الخلافة في العرب، وسحب السلطة المدنية من العثمانيين، وهذه الدعوة من الكواكبي لم تأت بشكل عفوي، وإنما عنده من الأسباب ما دفعه إلى القول بها، فهي تتسجم أولاً مع توجهاته الفكرية في تبني الفكرة القومية العربية، والانطلاق منها لتكون أساس الإحياء العربي، وإعطائها طابعاً سياسياً، وهو يقترب بهذا من رشيد رضا الذي تبني الفكرة نفسها وأكسبها الطابع الإسلامي، ويقترب من عبد الحميد الزهراوي -أيضاً- في حمل الفكرة القومية، لكن هذه الفكرة عند الزهراوي أكثر وضوحاً<sup>(٢)</sup>.

ثم إن الكواكبي، وعلى الرغم مما يحمله من فكر إصلاحي مشفوع برغبة صادقة وتطلع لإنهاض أمته وتآلم لوضعها المزري، فإنه ينطلق ثانياً في دعوته لفصل الدين عن الدولة من غرض سياسي هو إرضاء أولي الأمر في مصر، وقد حل ضعفاً ونزيراً في أرضهم، وينطبق عليه القول: أرضهم ما دمت في أرضهم، ومعروف أن فصل الخلافة عن السلطنة أو الدين عن الدولة، فضلاً عن أن القول به وتطبيقه على الإسلام خروج عن منهجه الرباني، فإنه من الناحية التاريخية والمنطقية غير مقبول صدوره عن الكواكبي؛ لأنه متأثر بهذا بالفكر الغربي، وبما أخذت به وطبعته دول أوروبا بفصل الدين عن الحياة، وحصر دوره في الكنيسة نتيجة لظروف محددة عاشتها أوروبا في القرون الوسطى قبيل نهضتها الحديثة<sup>(٣)</sup>، وهذا

(١) منير موسى، الفكر العربي، ص ١٥٥.

(٢) الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ١٦٨، ١٧٤.

(٣) جاءت النهضة الأوروبية علمياً وتقنياً نتيجة جهاد طويل بين رواد التحرر الفكري وبين الكنيسة، التي كان نفوذها على الملوك والساسة والعلماء وقتذاك واسعاً وشاملاً لا يجد، سيف الحرمان مسلط على رقاب كل من تحدّثهم أنفسهم بتجاهل البابا، فضلاً عن مخالفته، ولن ينسى التاريخ إذلال البابا جريجوري السابع للإمبراطور هنري الرابع، حين اختلف معه على حق تعيين الأساقفة على إقطاعياتهم، فأعلن حرمانه، وأحل أتباعه الأمر الذي قلل من ولائهم له، فاضطر الإمبراطور أن يذهب إليه تائباً سنة ١٠٧٧م، وأن يتنظر الغفران ثلاثة أيام متدنّراً بالخشيش في فناء القلعة؟؟؟، ولن ينسى التاريخ من أحرقت ومن نكل به تحت آلات التعذيب في محاكم الكنيسة من رواد علم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم الفلك أمثال غاليليو، بتهمته الخروج على تعاليم الدين، وهذا الصراع المير الطويل الذي وقفت فيه الكنيسة سداً بين=

يختلف تماماً عن الإسلام، ولا يتلاءم وشريعته التي أنزلها الله منهاجاً للبشر يحكم حياتهم إلى قيام الساعة بما جعل الله فيها من خصائص تلي حاجات البشرية المتجددة في كل شؤون الحياة ومتطلباتها، ومن هنا تأتي دعوة الكواكبي لفصل الدين عن الدولة إضافة إلى ما سبق الإشارة إليه آنفاً من تطبيق لقناعاته الفكرية وتوجهاته القومية على أرض الواقع، في خدمتها للغرض السياسي بعدما استقبل في مصر استقبالاً حافلاً من رموز التيار القومي من الشاميين الذين سبقوه إليها، ومن أصدقائه المصريين، وحظي بالقرب من عباس الثاني، وفتحت له أبواب الصحافة على مصراعيها ليقول كل ما يشاء ضد الخليفة عبدالحميد الثاني وضد دولته، باعتبار هذا الأخير رمز الاستبداد ومصدره وعلة الأمة في تكريس الاستبداد).

وبدأ الكواكبي بنشر كتابه طبائع الاستبداد في صحيفة المؤيد على حلقات متتالية، فسمع الخديوي عباس الثاني بالكواكبي، وهو الملك الحاكم لمصر آنذاك في ظل الانتداب البريطاني، وقرأ كتاباته بعدما بلغت شهرته إليه، فقربه منه وأعجب به وتوثقت بينهما الصلات وبدأت فكرة الخلافة العربية تأخذ أبعادها على المستويين الفكري والسياسي، يدعو إليها الكواكبي انسجماً مع مطمح الخديوي عباس، الذي كان يعمل من أجل تحويل الخلافة الإسلامية من الترك إلى العرب، على أن يكون هو سلطانها الزمني، والشريف الحسين بن علي خليفته الروحي في مكة، وبهذا تسحب الخلافة من ممثل الاستبداد عبدالحميد الثاني كما هو في نظرهم، وتعود إلى أصحابها الشرعيين العرب، وتصبح مصر بدلاً من تركيا المركز السياسي الحقيقي للإمبراطورية الإسلامية<sup>(١)</sup>، يبدو أن الدعوة إلى

---

=أوروبا وبين التقدم، ظهر فيه العلماء بمظهر الاستشهاد في الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى الموت، جعل دعاة التحرر الفكري يهدمون الكنيسة والدين النصراني، وانتهى الأمر بانتصار أنصار العلم والتحرر، والحد من سلطة الدين وحصره في نطاق الكنيسة، وبذلك تم فصل الدين والسلطة الدينية عن السلطة المدنية في أوروبا، وانكمش نفوذ البابا واقتصرت على طقوس التعميد والصلاة والزواج والجنائز، وأصبحت شؤون الدولة وتدير نظام المجتمع في يد رجال السياسة، وأراد المنهرون بالثقافة الأوروبية من العرب والمعجبون بمحضرة الغرب المادية تقليد هؤلاء، فقادهم جهلهم بطبيعة الإسلام ومبادئه إلى التوهم بأن الإسلام كالنصرانية، نادوا بفصل الإسلام عن السياسية جرياً وراء الغرب: انظر محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج ١، ص ٢٧٤-٢٨٠.

(١) منير موسى، الفكر العربي، ص ١٥٢، وانظر محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج ١، ص ٢٤.

مصطفى كامل، المسألة الشرقية، مطبعة الآداب، ط ١، مصر، ١٨٩٨م، ج ١، ص ١٣، ١٤، ١٩-٢٢.

الخلافة العربية وجعلها في ذرية محمد علي، كإبراهيم باشا ومن بعده الخديوي إسماعيل ثم عباس الثاني، التقت مع توجهات الكواكبي الذي دفعه كرهه للعثمانيين وللسلطان عبدالحميد للتجاوب معها والاندفاع لنشرها وجمع المؤيدين لها وترويجها بين المسلمين في الأقطار الإسلامية، وهو ما أشار إليه موسى بقوله: إن أحد المؤلفين الإنكليز لاحظ في العقد الأخير من القرن التاسع عشر وجود مبعوثين من قبل الخديوي عباس حلمي كانوا يبشرون سرّاً بعقيدة الخلافة العربية، .. وأن الخديوي عهد إلى الكواكبي بأن يطوف في أنحاء البلاد العربية للدعوة إلى الخلافة العربية، وحمل الإمارات والعشائر العربية على تأييد خلافته (الخديوي عباس)، والواقع أنه (الكواكبي) قام برحلة واسعة فطاف جزيرة العرب ومصر والسودان، وتغلغل في إفريقية والمحيط الهندي، وبلغ كراتشي وبومباي، وامتدت رحلته ستة أشهر ... وسخر الله له في عودته سفينة حربية إيطالية بتوصية من وكيل إيطاليا السياسي في مسقط، فطافت به في سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقية الشرقية، وجاء كتابه "أم القرى" بعد هذه الرحلة في الدعوة إلى إصلاح الجامعة الإسلامية في ظل خلافة عربية ينتخب خليفته من قریش<sup>(١)</sup>، فمطلقاً الإصلاح عند الكواكبي في الجانب السياسي، والمناداة بفصل الدين عن الدولة، إنما كان الغرض منه هدم الخلافة العثمانية، وهذا خطير؛ لأنها رمز وحدة المسلمين وجامع لكلمتهم ومصدر قوتهم وملاذهم في مواجهة الأعداء حتى وإن كانت غير ملتزمة بالإسلام تماماً، ولها بعض الأخطاء، ثم البناء على ذلك بإقامة كيانات منفصلين عن بعض يتولى أحدهما إدارة شؤون الدنيا، والآخر يتولى الخلافة الدينية، ويكون عربياً قرشياً في مكة، وهذا الفصل، وإن جاء صريحاً وواضحاً عند عبدالرحمن الكواكبي، فإنه كما يقول عنه المستشرق الفرنسي تابييرو من الصعوبة التسليم به، والإقرار بفصل السياسية عن المسائل الدينية والاجتماعية والإدارية، خصوصاً عند التحدث عن البلاد الإسلامية<sup>(٢)</sup>، وتتعدد الآراء تجاه هذه المسألة الجوهرية والحساسة والخطيرة، وذات الأثر الكبير على الأمة المسلمة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ويأتي هذا التعدد انطلاقاً من المشارب الفكرية التي يصدر عنها القائلون بها، ومن فهمهم لمبادئ الإسلام ونظامه وخصائصه الربانية، التي جمعت الدين والدنيا معاً في مشكاة واحدة، وبالتالي تختلف الرؤى باختلاف تلك المشارب وتلك الأفهام، فالفرض السياسي الذي أراد الكواكبي تحقيقه

(١) منير موسى، الفكر العربي، مصدر سابق، ص ١٥٢-١٥٣.

(٢) تابييرو، الكواكبي: المفكر الناصر، ص ١٥٢.

بفصل الدين عن الدولة، عده البعض سعيًا إرهابيًا نحو إقامة رابطة عربية قومية، يكون رأسها حاكمًا سياسيًا لا يرتبط بالدين من حيث السلطات والصلاحيات<sup>(١)</sup>، وتضم هذه الدعوة العرب المسلمين وغير المسلمين، هلّل لها المنادون بالفكرة القومية من غير المسلمين بما جاء على لسان سليمان موسى حين قال: لأول مرة يتقدم مفكر عربي مسلم بمشروع إنشاء دولة تفصل فيها السلطة التنفيذية عن الدين، بينما كان المفكرون المسلمون قبل ذلك يدعون إلى إبقاء السلطة التنفيذية والزعامة الدينية ملتصقتين في شخص الخليفة - السلطان<sup>(٢)</sup>، ونظر إليها جورج كتورة بأنها استعادة السلطة التي قررّها الدين وحدد معالمها<sup>(٣)</sup>، وذهب آخرون إلى التأكيد على مقصد الكواكبي فيما ذهب إليه من فصل الدين عن الدولة، بأنه أي الكواكبي أراد بالفعل هذه الفكرة بأبعادها الدينية والسياسية، وإلغاء دور الخليفة العثماني في ممارسة إدارة الدولة بشكل مباشر كالذي سار عليه السلطان عبد الحميد في مزاوله عمله كرأس للسلطة التنفيذية وخليفة للمسلمين في آن معاً<sup>(٤)</sup>، وهو ما جرى الحال عليه في صدر الإسلام في فترة الخلفاء الراشدين، ترأس الخلفاء الدولة، وجلسوا على كرسي القضاء، وحكموا في المسائل العامة للأمة، وفي الوقت ذاته مثلوا السلطة السياسية كحكام باسم الشريعة، وقائمين على تطبيقها، مع أن هذه التفاصيل لم تأت في محكم النصوص القرآنية، ولم يرسم القرآن سياسة محددة للحاكم، ولم يفصل أدواره في إدارة الدولة، وإنما ترك له حرية الاجتهاد ضمن إطار المنهج القرآني، لكن الكواكبي أراد غير ذلك من خلال المناداة باستبدال الدعوة إلى الخلافة الإسلامية بالمطالبة بخلافة عربية تضم المسلمين وغيرهم<sup>(٥)</sup>، وإنشاء جمعية دينية تستظل براية الخلافة لإصلاح الدين، ويؤدي الخليفة فيها دور المفتي، بينما دوره الحقيقي بمنظور السياسة الشرعية الإسلامية هو قيادة الأمة الإسلامية من الناحيتين الدينية والسياسية، ويحمل منصبه المضمونين الديني والسياسي معاً.

(١) Khaldon Al-Husry, Three Refomers. P.٨٥

(٢) سليمان موسى، الحركة العربية، دار النهار، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٢٣.

(٣) جورج كتورة، طبائع الكواكبي في طبائع الاستبداد المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٥١.

(٤) جان دارة، الأمان الكواكبي: فصل الدين عن الدولة، دار سوارقيا، ط ١، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٤١-٩٠.

(٥) محمود مصطفى حلاوي، عبد الرحمن الكواكبي (رؤية جديدة لمنهجه الإصلاحية)، مجلة دراسات عربية، ع ٢، ص ٥٧.



واتجه الكواكبي هذه الوجة في تجريد الخليفة من الصلاحيات السياسية الممنوحة له بموجب الشرع الإسلامي، وتجريد الحاكم من السلطة الدينية عبر طرح فكرة الفصل بين السلطتين، وعد ذلك إصلاحاً ومنعاً لاستبداد الخليفة العثماني الذي يؤدي كلا الوظيفتين<sup>(١)</sup>.

ودعا الكواكبي في إصلاحه السياسي هذا، إضافة إلى ماسبق، إلى تفتيت الرابطة العثمانية، وإعطاء الشعوب والأقاليم الإسلامية استقلالاً، يجب أن تتال كل ولاية من ولايات الدولة العثمانية استقلالاً ذاتياً، ويصبح لها زعيم سياسي يحكمها، وتصبح لها قوانين خاصة، وهو يقصد من وراء هذا تجزئة دولة الخلافة العثمانية، وأن تصبح راية الخلافة الإسلامية العثمانية في مهب الريح، وهذا يؤدي إلى ضياع وحدة الأمة، وتحول الدولة الواحدة إلى مجموعة من الدول المتشرذمة، وأنى لهذه الدول أن تحقق هذا الإصلاح الكواكبي وأن تجتمع تحت راية، أو تتوحد في رابطة، إلا إذا توحدت بصيغة جديدة ترضي المستعمرين كما هي اليوم في منظمة المؤتمر الإسلامي وجامعة الدول العربية، في كل منهما الكثير من الدول ولكل دولة جواز سفر وحدود وجيش وإدارة منفصلة مستقلة عن الأخرى ويعمل الجميع بمراقبة ومتابعة الدول الكبرى التي ترعى استقلالهم وتستغل مقدراتهم وتسيطر عليهم من خلال واقع التجزئة المفروض من خارج حدودهم ومن إرادة عدوهم!! فالإصلاح المطلوب والمقترح عند الكواكبي كبديل عن استبداد الخليفة العثماني عبد الحميد وعن مركزته في حكم الدولة، هو شرذمة كيان هذه الدولة وتجزئتها، فالحكام يجب أن يكونوا كثيرين؛ لأنه لا يجوز أن يحكم سلطان واحد الأقاليم الإسلامية جميعها، بل لا بد لكل إقليم من نيل استقلاله والعمل بقوانين خاصة مناسبة له<sup>(٢)</sup>.

ويطرح الكواكبي صيغة تربط بين هذه الولايات الإسلامية، التي جمعها تحت راية خليفة عربي قرشي، وقيد إرادته بمجلس شوري إسلامي منتخب من هذه الولايات، ويتحقق الحل المثالي لمشكلة الخلافة وفق صيغة الارتباط هذه بقول الكواكبي: "وبمثل هذا الترتيب تتحل مشكلة الخلافة ويتسهل عقد اتحاد إسلامي تضامني تعاوني يقتبس ترتيبه من قواعد اتحاد الألمانين والأمريكانيين مع الملاحظات الخاصة ... وما أجدر إمارات الجزيرة (العربية) بالسبق إلى مثل هذا الاتحاد"<sup>(٣)</sup>. وينفي (ليفين) عن عقد الاتحاد الإسلامي الذي اقترحه

(١) منير موسى، الفكر العربي، ص ٢٣٠.

(٢) الكواكبي، أم القرى، ص ٢٣٤-٢٣٦.

(٣) الكواكبي، أم القرى، ص ٢٣٧.

الكواكبي تحت راية الخلافة العربية القرشية أن يكون بصيغة دولة متحدة سياسياً، وإنما هو بمثابة اتحاد كونفدرالي للدول الإسلامية، ولا يتمتع الخليفة فيه إلا بالسلطة الروحية، أما السلطة السياسية في الخلافة الإسلامية، فهي تخص حكاماً زمنيين<sup>(١)</sup>، وهذا يتوافق مع ما استخلصه العقاد حين رأى أن الكواكبي قد حل مسألة الخلافة في أن "تفصل عن الملك وتعود إلى العرب وتقوم على أساس الشورى والانتخاب"<sup>(٢)</sup>، وهو تكريس لتهميش دور الخليفة وإبقائه روحياً، وجعل منصبه شرفياً يرمز لاتحاد المسلمين، ويلتقي مع تمثال الحرية الذي جسدت فيه قيم الديمقراطية المزيفة في العصر الحاضر، ويؤيد الطحان موقف الكواكبي في تفرغ منصب الخليفة من محتواه السياسي، وتحويل صلاحياته وسلطاته الزمنية المدنية إلى الحاكم البديل الذي يتولى السلطة الزمنية مبرراً ذلك بالاستناد إلى إرادة الأمة ليتسنى قطف ثمار الديمقراطية<sup>(٣)</sup>، وهذا البديل هو حاكم مصر الخديوي عباس الثاني الذي أبدى ارتياحاً شديداً لصيحة الكواكبي كما أشير إليه في الصفحات السابقة، كما دعا الكواكبي إلى تشكيل اتحاد بين الولايات الإسلامية التي يسعى لفصلها عن العثمانيين، وإخراجها من نطاق إدارتهم المركزية، فإن جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ / ١٨٣٩-١٨٩٧م) الذي يعد من رواد الإصلاح في هذه الفترة، ومن المنادين بالجامعة الإسلامية، قد دعا أيضاً - إلى توحيد المسلمين لكن خطته لهذا التوحيد تختلف عن خطة الكواكبي.

فبينما يسعى الكواكبي إلى تحويل الخلافة عن العثمانيين إلى خليفة عربي قرشي، وتجريد هذا الخليفة من السلطات المدنية، ووضعها بيد حاكم سياسي يتولى قيادة الدولة الإسلامية بشكل مستقل ومنفصل عن سلطة الخليفة الدينية، فإن الأفغاني يقر ببقاء الخلافة بيد العثمانيين، وأن يتولى الخليفة عبدالحميد الثاني ومن يخلفه في هذا المنصب قيادة الدولة سياسياً، ويمارس صلاحياته كخليفة للمسلمين بسلطة دينية ومدنية في الوقت ذاته دون الفصل بينهما، إلا أنه يقدم خطة لإصلاح الدولة العثمانية مبيّنة لخطة الكواكبي وملتقبة معها في نقطة واحدة هي منح الولايات التي تتشكل منها الدولة العثمانية والمتبقية تحت سلطتها حكماً ذاتياً واستقلالاً داخلياً، وجعلها خديويات، حسب تعبير الأفغاني،

(١) ز.أ. ليفين، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، ترجمه بشير السباعي عن الروسية، دار ابن خلدون، ط١، بيروت، ١٩٧٨م، ص ١٤٠-١٧٠.

(٢) عباس محمود العقاد، عبدالرحمن الكواكبي (الرحالة كان)، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٣٥، ١٣٤.

(٣) الطحان، الاستبداد وبذائله، ص ٤٨٨.

ويترك لها الفرصة الكافية كي تقيم كيائها بنفسها وتبني نهضتها بذاتها، ثم متى نهضت تلك المقاطعات تسرع لمقام السلطنة العثمانية للاتحاد معها، على شكل اتحاد فدرالي كما هو قائم من اتحاد بين بريطانيا وإيرلندا<sup>(١)</sup>، وكان هذا العرض بمثابة شريطة للدولة العثمانية وتقسيم لها، حتى وإن كان الظاهر من مشروع الأفغاني الإبقاء على كيان شكلي لها، فإنه إضعاف لشوكتها وإسقاط لهيبتها، فمصلح مثله يترفع عن الدرك الذي انحدر إليه سفهاء الاتحاد والترقي الطورانيين الذين حكموا الدولة العثمانية بعد انقلابهم على السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٩٠٨م وحكموا حتى عام ١٩١٨م، وأسأوا إلى العرب، وأفسدوا علاقات الأخوة الإسلامية مع المسلمين العرب، حين استعملوا أقذع الألفاظ في شتم العرب وإظهار الكراهية لهم، وقد أورد الكواكبي أمثلة من عبارات الاتحاديين في كتابه أم القرى، بينما كان سلاطين آل عثمان يمجدون العرب ويجلونهم ويستخدمون عبارات تدل على هذا الاحترام وهذا التقدير فكانوا يطلقون على بلاد الشام: شام شريف، وعلى مصر: الممالك المحروسة، وعلى الحجاز: الحرمين الشريفين ويطلقون على العرب: قوم نجيب، حفاظاً على مشاعر العرب وصوناً للعلاقات الإسلامية والأخوة معهم<sup>(٢)</sup>.

ويفرض مشروع الأفغاني في محصلته إلى فصل ما تبقى من الولايات العربية تحت سلطة الدولة العثمانية عنها، بما فيها بلاد الشام، إلا أنه وعلى خطورته وعدم قبول السلطان به، لا يدعو إلى تحريض أبناء العرب للخروج على العثمانيين، كالذي سعى إليه الكواكبي وكثف منه انتقاداته لهم وتجريحهم لإثارة العرب ضدهم، وقد أفرد صفحات كثيرة في كتابيه طبائع الاستبداد وأم القرى لهذا الغرض<sup>(٣)</sup>، فهو يقول على لسان صاحب الهندي في الحوار الصوري الذي دار بينه وبين الأمير: "أخبرني أيها الأمير، أحد أعضاء الجمعية، أنه لما رأى السيد الفراتي يميل للتقريب عن سياسية العثمانيين واستمالة الجمعية عليهم لالهم، ذكر

(١) جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة (٢ج)، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٨١م، ج ٢، ص ١٦-١٨.

(٢) زين نور الدين زين، نشوء القومي العربية، دار النهار، ط ٨، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٢٧. أحمد الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص ٧٦.

(٣) انظر الكواكبي، أم القرى، ص ١٦٣-١٧١، ٢٢٧-٢٣٨، ٢٤٠-٢٤٤، ٢٤٤-٢٤٤.

له ذلك مرة متطوعاً، وقال له: ألا ينبغي ستر أحوالهم والمدافعة عنهم، لأنهم أعظم دولة إسلامية موجودة؟ فأجابه: بأن ذلك كذلك لولا أن فيه تغيير المسلمين وتركهم متكئين على دولة ما توفقت لنفع الإسلامية بشيء فيعز شبابها، بل أضرتها بمحو الخلافة العباسية المجمع عليها وتخریب ما بناء العرب، وإفناء الأمة فتوحاتها شرقي أوروبا ومدافعاتها، أليس الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا خليفة، وتركوا الدين تعبت به الأهواء ولا مرجع، وتركوا المسلمين صماً بكماً عمياً ولا مرشداً؟ أليس الترك قد تركوا الأندلس مبادلة، وتركوا الهند مساهلة، وتركوا الممالك الجسيمة الآسيوية للروسين، وتركوا قارة إفريقيا الإسلامية للطامعين، وتركوا المداخل في الصين كأنهم الأبعدون؟ أليس الترك قد تركوا وفود المتجئین يعودون خائبين، وتركوا المستصرين بهم عرضة للمنتقمين، وتركوا ثلثي ملكهم طعمة للمتغلبين؟ أفما آن لهم أن يستيقظوا ويصبحوا من النادمين على ما فرطوا في القرون الخالية؟ فيتركوا الخلافة لأهلها والدين لحماته، وهم يحتفظون على بقية سلطنتهم، ويكتفون بشرف خدمة نفس الحرمین<sup>(١)</sup>، من خلال ما سبق يمكن تصنيف أسباب الخل السياسي في الدولة العثمانية في أربعة جوانب رئيسة وفق رؤية الكواكبي:

أولاً: القوانين: من خلال توحيدها على الشعوب التي تتكون منها الرابطة العثمانية، ويتم فيها توحيد القوانين الإدارية والعقوبات القضائية.

ثانياً: الإدارة: ويقصد فيها تطبيق إدارة مركزية تكون فيها كل صلاحيات الولايات والمناطق التابعة للدولة العثمانية منوطة بالحكومة في العاصمة استنبول.

ثالثاً: الموظفون المسؤولون: وهم يختارون من غير الأكفاء، ولا سيما في بلاد الشام والعراق والحجاز.

رابعاً: المحكومون: وهم رعايا الدولة العثمانية، لا يستشارون إطلاقاً، والقرارات التي تتخذ تناقض في القالب طبائعهم وعوائدهم ومصالحهم<sup>(٢)</sup>.

مما سبق يتبين أن عدااء الكواكبي للعثمانيين، وشدة كراهيته لهم، جعله يكثر وبشكل متحامل من انتقادهم وتجريحهم، لدرجة الخروج على المألوف، والمتعارض مع اللياقة

(١) الكواكبي، أم القرى، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨-١٦٩. وانظر تاييرو، الكواكبي المفكر الثائر، ص ١٦٨-١٧٠.

في النقد، من ذلك قوله عنهم ثلاث خلقن للجور والفساد: القمل والترك والجراد<sup>(١)</sup>، وهذا الأسلوب في النقد عندما يستعمله رجل مصلح كالكواكبي، فإنه يذهب به بعيداً عن الموضوعية، ويدع المجال واسعاً للقول أنه خرج عن ابتغاء الحق والإخلاص في النظرة إلى الدولة العثمانية وعظيم إنجازاتها على مستوى الأمة الإسلامية في المجالات السياسية والعسكرية والحضارية عبر تاريخهم الطويل، ولهم الفضل في حفظ الأمة من غوائل الاستعمار الغربي لمدة تزيد على خمسة قرون، كان العثمانيون خلالها قائمين على حراسة ثغور البلاد الإسلامية ومن بينها البلاد العربية، كانوا يرفعون راية الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام، ولولاهم لما وجدنا مسلمين إلى يومنا هذا في دول أوروبا الشرقية في كوسوفا ومقدونيا وصربيا وبوسنة وهرسك وقفقاسيا وشيشانيا وأنغوشيا وغير تلك البلدان، وهم الذين حفظوا لواء الخلافة الإسلامية وقد تسنموها وبعثوا فيها الروح بعد أن أصبحت أثراً بعد عين في أواخر عهد العباسيين وفي عهد المماليك<sup>(٢)</sup>، على الرغم من كل الملاحظات والمآخذ على الإدارة العثمانية عبر القرون التي حكموا فيها البلاد العربية، لكن ذلك كله لا يدع المرء يطلق عنان الاتهامات ويحرف الكثير من الوقائع التاريخية ليثبت أن سلاطين آل عثمان كانوا يضحون بالدين في سبيل إدراك كسب سياسي يزيد من نفوذهم ويؤيد ملكهم<sup>(٣)</sup>، لدرجة أول فيها الكواكبي عناية السلاطين العثمانيين بالمساجد وإعمالها، وجعلها منارات للهداية ونشر الإسلام في كل بقعة وطأتها أقدام جنودهم بقوله: "لم يخدموا الإسلامية بغير إقامة بعض جوامع لولا ذكر أسمائهم على منابرهما لم تقم"<sup>(٤)</sup>، وقد أشار (تاييرو) إلى أسلوب الكواكبي المتشدد تجاه مسألة الخلافة، الذي يتشابه أثناء مناقشتها في بعض النقاط مع آراء أبناء المدرسة الإصلاحية التي نسبه إليها وعدّه من أتباعها، وهي مدرسة المنار.

(١) الكواكبي، أم القرى، ص ١٧٠.

(٢) الشناوي، عبدالعزيز الوحدة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر: نشر: دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م، ص ١٤، الشوابكة، الجامعة الإسلامية، ص ٧٥.

(٣) محمد محمد حسين، الاتهامات الوطنية، ج ١، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٤) الكواكبي، أم القرى، ص ١٧٠.